

الjasوسة

محمود سالم



الjasوسة

تأليف
محمود سالم



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٩٠ ١٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٣.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

٧	من هم الشياطين الـ «١٣»؟
٩	أبطال هذه القصة
١١	عشرة ملايين دولار ... لمن؟!
١٧	الهروب إلى فنلندا!
٢٥	المفاجأة المذهلة!
٢٩	باريس ... الجنة والجحيم!
٣٣	الموت بين الأشجار!
٣٧	الخدعة الجهنمية!
٤١	خط النهاية!

من هم الشياطين الـ «١٣»؟

إنهم ١٣ فتى وفتاة في مثل عمرك، كلُّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السَّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يره أحد، ولا يعرف حقيقته أحد. وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

- رقم «١»: «أحمد» من مصر.
- رقم «٢»: «عثمان» من السودان.
- رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.
- رقم «٤»: «هدى» من المغرب.
- رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.
- رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.
- رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.
- رقم «٨»: «فهد» من سوريا.
- رقم «٩»: «خالد» من الكويت.
- رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.
- رقم «١١»: «قيس» من السعودية.
- رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.
- رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.
- رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

عشرة ملايين دولار ... لمن؟!

خَطَّت «إلهام» إلى داخل قاعة عرض الأفلام، داخل كهف الشَّيَاطِين، فوجدت أن «ريما» و«زبيدة» و«هدى» قد سبقنَّها إلى هناك، فعَلَتْ وجهها نظرةً اندهاش، وأخذت مكانها إلى جوار «هدى» وهي تقول: يبدو أن هذه المهمة خاصَّة بالجنس اللطيف فقط من الشَّيَاطِين. أجابتها «هدى» باسمه: هذا هو ما تبادر إلى ذهني أيضًا، عندما رأيْتِكِ تخطين إلى القاعة.

بعد لحظاتٍ قصيرةٍ انطفأت الأنوار، وبدأت آلة عرض السينما في العمل، فظهر أولاً الميدانُ الأحمرُ في قلب «موسكو»، ومبنى «الكرملين» الشهير ... وظهر بعدها الزعيم السوفييتي السابق «جورباتشوف»، وهو يلقي إحدى خطبه وسط جموعٍ حاشدةٍ أخذت تهتفُ باسمه.

ثم ساد الظلام للحظة، وظهر مبنىٌ عريضٌ كثيب الشكل تُحيط به الأسوار من الخارج، ويلفه الغموض والرَّهبة التي ظهرت آثارها على وجوه الأشخاص الداخلين إلى المبنى، وهم يتعرضون لتفتيشٍ دقيقٍ على بوابات الدخول.

همست «زبيدة» تقول كأنها تحدث نفسها: هذا هو مبنى المخابرات «الروسية» دون شك. فأجابتها «ريما» الجالسة بجوارها: لقد كان هذا المبنى يُثيرُ الخوف والرعب في قلوب رجال المخابرات في العالم كله، ولكن أشياء كثيرة قد تغيرت داخل هذا المبنى، بعد تفكك «الاتحاد السوفييتي» وانهيار الشيوعية في العالم.

وظهرت صورة الزعيم الروسي «يلتسين» فوق الشاشة البيضاء، وهو يحيي الجماهير المحتشدة التي وقفت تهتف باسمه ... وظهرت طوابير الدبابات التي خرجت لمؤازرته في انقلاب المخابرات الشهير ضده ... وتركزت الصورة على وجوه زعماء الانقلاب وهم يُساقون إلى مبنى المخابرات الشهير لاستجوابهم.

وساد الظلام مرة أخرى، ثم تركزت الأضواء على وجهٍ وحيدٍ ملأ كادر الشاشة ... وجه امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها.

كانت المرأة جميلةً شقراء ... ولكن جمالها كان يُوحى بنوعٍ من القسوة البالغة والإرادة الحديدية ... ويطلُّ من العينين جرأةً لا حدَّ لها.

وأضيئت الأنوار في القاعة وقد سادها سكونٌ عميق ... وصورة المرأة لا تزال مضاءةً على الشاشة ... في نفس الوقت كان رقم «صفر» يأخذ مكانه المعتاد الخفي ... وقال في صوتٍ رزين: مرحباً بكُّنَّ في قاعة العرض السينمائي ... وأرجو أن يكون العرض الذي شاهدتموه، قد أوحى لكُنَّ بالمهمة القادمة ... التي ستكون من نصيبك ... وحدكُن.

قطبت «ريما» حاجبيها وقالت: إنها مهمةٌ نسائيةٌ دون شك ... والهدف هو هذه المرأة ... أو فلنقل هذه الجاسوسة.

أجابها رقم «صفر» في صوت هادئ: إن استنتاجك في محله يا «ريما» ... فمهمتك القادمة هي هذه الجاسوسة «ناتاليا فاسيليفتش» ... أعظم جاسوسة في تاريخ المخابرات بأكملها.

تساءلت «إلهام»: وهل لهذه المهمة علاقةٌ بتفكُّك «الاتحاد السوفييتي»، وتحوُّله إلى جمهوريات مستقلة، وإقصاء «جورباتشوف» من سلطته؟

أجاب رقم «صفر»: لقد وضعت يدك على المشكلة بالضبط يا «إلهام». وصمت رقم «صفر» لحظةً قبل أن يضيف: لقد بدأت المشكلة بعد تفكك «الاتحاد السوفييتي»؛ ففي السابق كنا نتعامل مع كيانٍ موحدٍ هو الكيان «السوفييتي»، وكان «السوفييت» متعاونون معنا بقدر ما، وأنتم تعرفون دون شك أن «السوفييت» ساهموا في بعض الأوقات في تسليح عددٍ من الجيوش العربية، وقدموا لنا الخبراء، وهذا ما مكَّنهم من الاطلاع على بعض أسرار الجيوش العربية وتسليحها ... ولكن تلك الأسرار، وصفقات الأسلحة، كانت تختفي داخل أروقة دهااليز مبنى المخابرات «السوفييتية»، وتحاط بسريَّة بالغة، ويستحيل على أي إنسان أو جاسوس معادٍ الوصول إليها مهما بلغت مهارته.

زبيدة: ولكن بعد انهيار «الاتحاد السوفييتي» ... تغير الوضع ... أليس كذلك؟
أجاب رقم «صفر»: بالضبط ... فقد انقسمت المخابرات «السوفييتية» على نفسها وتوزع ولاؤها ... وبالطبع فنحن نعلم أن جمهورية «روسيا» هي التي ورثت الجزء الأكبر من الجيش والمخابرات «السوفييتية»، ولكن بعض الثغرات التي ظهرت داخل النظام الجديد، هي التي أحدثت هذه المشكلة، فقد جاءت محاولة الانقلاب ضد «جورباتشوف»

من قلب المخابرات «الروسية»، وهو ما أوجد شكوك الحكومة ضد جهاز المخابرات بأكمله، وتم وضع كل أفراده تحت الرقابة ... فتكشفت أشياء كثيرة ما كانت لتخطر على البال أبدًا. ساد صمتٌ عميق بعد كلمات رقم «صفر»، وأنصتت الفتيات الأربع في تركيز تامٍّ، وقد أحسَّت كلُّ منهن، بخطورة ما سينطق به رقم «صفر» الذي قال بعد لحظة: لقد اكتشف الروس أن بعض المخابرات الأجنبية قد تسلَّلت إلى داخل مبناها الرهيب ... وأن أسرارها توشك أن تصبح نهبًا مُباحًا للكثيرين ... وتصرف الروس بسرعةٍ ومهارة، فاستطاعوا سدَّ كثيرٍ من الثغرات في مبناهم العتيق ... ولكن!

أكملت «إلهام»: لقد حدث تسرُّب بالفعل، في بعض الملفات التي تخص قدرات وأسلحة بعض جيوشنا ... أليس كذلك؟!

أجاب رقم «صفر»: هذا هو ما حدث بالضبط ... فقد تشتَّتت الجهات المسؤولة عن حفظ هذه الملفات، واختفى بعضها، وأشارت أصابع الاتهام ضد «ناتاليا» ... خاصة بعد أن كشف التحقيق تورطها مع قادة الانقلاب، وإن لم يكن هناك أي دليل حاسم ضدها، فبدأت العيون الخفية للمخابرات «الروسية» في وضعها تحت المراقبة، بحثًا عن دليل اتهام لها.

زبيدة: ولكنهم بدلًا من ذلك، التقطوا خيطًا آخر.

رقم «صفر»: هذا صحيح؛ فقد أثبتت التحريات والمراقبة الدقيقة، علاقة «ناتاليا» بجهاز مخابرات معادٍ لنا، وأنها توشك على أن تمدَّه بمعلوماتٍ غاية في السرية.

إلهام: إنها أسرار صفقات السلاح العربية ... أليس كذلك؟

هاتف رقم «صفر»: بالضبط يا «إلهام» ... ومن المؤسف أن ذلك جاء متأخرًا ... فعندما تنبه «الروس» للغرض الحقيقي لـ «ناتاليا»، كانت قد تمكَّنت من سرقة بعض وثائق هذه الأسلحة البالغة السرية، وتصويرها وتهريبها خارج مبنى المخابرات «الروسي»، وبناءً على معلوماتٍ من جانبنا، اكتشفنا ما قامت به «ناتاليا» فأخبرنا «الروس» بما تنويه، فتحركوا للقبض عليها، ولكنها كانت قد أفلتت من القفص للأسف الشديد، واختفت من «روسيا» ومعها أفلام الميكروفيلم التي صورتها.

تساءلت «هدى» في اهتمام: وهل تمت الصفقة بين الجاسوسة والمخابرات المعادية؟

أجاب رقم «صفر»: لا لحسن الحظ؛ فقد كانت «ناتاليا» تُدرك أن خروجها سألماً من قفص الدُّبِّ «الروسي»، يكمن في احتفاظها بأفلام الوثائق السرية؛ لأنها لو منحتها للجانب الآخر وقبضت ثمنها فقد لا تغادر بلادها حية أبدًا؛ ولهذا احتفظت بها ورفضت التصرف فيها حين مغادرتها «الاتحاد السوفييتي» بأكمله.

قالت «زبيدة» وعيناها تلمعان: إن هذا معناه أن «ناتاليا» لا تزال في مكانٍ ما ... داخل إحدى الجمهوريات «السوفييتية»، ولم تغادرها بعد.
رقم «صفر»: هذا صحيح تماماً ... فقد اختفت «ناتاليا» لعدة أسابيع بعد أن تأكدت من اكتشاف أمرها، وانطلاق مئاتٍ من زملائها السابقين لتعقبها والقبض عليها، وهي ليست بالغباء لكي تحاول الهروب من البلاد في الوقت الذي ترصد كل الموانئ والمطارات تحركها، ويجري فيها البحث عنها، وبحكم خبرتها كانت تعرف أن الأمور ستهدأ حتماً، ولقد تمكنت من الاختفاء عن العيون كل هذه المدة السابقة، وأخيراً استطعنا رصد حركتها ومعرفة مكانها. إنها في مدينة «ليننجراد» على الحدود، وهي تستعد للسفر ومغادرة البلاد، خلال أيام قليلة قادمة.

زبيدة: ولماذا لم تُبلِّغوا «الروس» بذلك يا سيدي؛ ليطم القبض عليها مرة أخرى؟
هز رقم «صفر» رأسه قائلاً: لا أحد يضمن ماذا ستفعل «ناتاليا» إذا أحست أن بني قومها يحاولون القبض عليها مرة ثانية، فقد تتخلص من أفلام الوثائق بمنحها للأعداء وتقبض الثمن الذي حددته ... عشرة ملايين دولار، توضع باسمها في أحد بنوك «سويسرا». قطبت «إلهام» حاجبها قائلة: إن هذا معناه أنك تفضل تدخلنا لإيقاع الصيد في الشباك.

رقم «صفر»: هذا صحيح تماماً يا «إلهام» ... فلن يستطيع أحد أداء هذه المهمة أفضل منا؛ فنحن نتفوق على غيرنا في هذه الناحية، فإن الوثائق تخصنا، والقضية قضيتنا، كما أن أفراد الشياطين مجهولون بالنسبة لهذه الجاسوسة المحترفة، وهي لن تتوقع مطاردة أربع فتيات لها، وهو ما يوفر لنا عنصر المباغته.
زبيدة: إنه تفكير صائب يا سيدي.

رقم «صفر»: ولكن المهمة ليست سهلةً بأي حالٍ من الأحوال؛ فهذه الجاسوسة كما أخبرتك هي أعظم جاسوسة على الإطلاق، ولها مهارة الثعلب في الاختباء والتحايل، وقدرة الحرباء على التلون والتخفي، وهي بارعة في إطلاق الرصاص، ولا تخطئ أيضاً الهدف، كما أنها سريعة التفكير واتخاذ القرارات ... ولا يهمها عدد من يسقطون من ضحاياها على الإطلاق.

قال رقم «صفر» العبارة الأخيرة ببطء شديد، كأنه يؤكد على معناها.
فقالت «ريما» محتجة: ولكن مهما كانت مهارة هذه الجاسوسة، فإنها لن تتغلب على أربعة في الجانب المضاد، لا يقلن عنها مهارة.

رقم «صفر»: يحسن بي أن أخبركن أخيراً أن مهمتكن ليست سهلة، إن قائمة ضحايا «ناتاليا» تزيد على العشرين ... نصفهم من أشهر رجال المخابرات في العالم، ونصفهم الآخر من النساء ... أكثر الجاسوسية احترافاً ... وكلهم ذهبوا في مطاردة خلف «ناتاليا» قاصدين العودة برأسها ... فعادوا إلى بلادهم في توابيت!

ساد صمت ثقيل بعد كلمات رقم «صفر» ... وقالت «إلهام» في صوت عميق: ولكنها قضيتنا هذه المرة يا سيدي ... وهو ما يمنحنا قوة مضاعفة.

وتساءلت «ريما»: متى تنوي «ناتاليا» مغادرة «ليننجراد» بالضبط، وأية وسيلة ستأخذها لذلك، وما هي وجهتها التالية؟

هز رقم «صفر» رأسه نائفاً وقال: الإجابة عن كل هذه الأسئلة لا نعرفها ... لأن عميلنا الوحيد في «ليننجراد» بعد أن اكتشف وجود «ناتاليا» فيها، وأبرق لنا بذلك، عُثر على جثته داخل شقته وبها طلقة في الرأس، من مسدس كاتم الصوت.

قالت «هدى» في غضب: هذه الذئبة المتوحشة، سوف تدفع الثمن غالباً. إلهام: بقي شيء وحيد أود الاستفسار عنه يا سيدي، فهل للأعداء الذين يرغبون في شراء هذه الوثائق من «ناتاليا» وجود في «ليننجراد»؟!

رقم «صفر»: إنه سؤال ذكي يا «إلهام»، وإجابته هي «نعم» ... فإنهم هناك كثفوا من تواجدهم بغرض حماية «ناتاليا» من السقوط في أيدي المخابرات «الروسية»، أو أي أعداء محتملين، ولضمان تهريب الوثائق خارج «الاتحاد السوفييتي»، فهم لا يعلمون أين أخفت «ناتاليا» هذه الوثائق ... ولم يستطيعوا الحصول عليها إلا إذا غادرت آسيا بأكملها حيّة. زبيدة: إن هذا يعطي بُعداً آخر للمهمة ... فهي ليست ضد امرأة وحيدة ... مهما بلغت مهارتها!

رقم «صفر»: هذا صحيح ... فالعدو مزدوج هذه المرة. وصمت لحظة قبل أن يُضيف: هل هناك أية تساؤلات أخرى؟ ترامقت الفتيات الأربع في صمت، فقال رقم «صفر» في لهجة ودودة: أتمنى لكنّ التوفيق في هذه المهمة ... والآن جهّز حقايبكن للسفر ... فهناك طائرة مغادرة إلى «روسيا» بعد ساعتين بالضبط.

غادرت «هدى» و«إلهام» و«زبيدة» و«ريما» مقاعدهن، واتجهن إلى باب الخروج ... وقد تألقت عيونهن ببريق مدهش ... بريق المغامرة.

الهروب إلى فنلندا!

أحكمت «إلهام» غلق معطفها الثقيل، وهي تغادر إلى مدينة «ليننجراد» مع زميلاتها الثلاث، كُنَّ يحملن حقائب ملابس صغيرة، وجوازات سفرهن تُشير إلى أنهن مراسلات صحفيات لبعض المجلات العربية، في إجازة قصيرة لـ «روسيا».

أشارت «زبيدة» إلى أقرب تاكسي، كان الجو باردًا في بداية فصل الشتاء، فاستقل الأربع فتيات سيارة أجرة ... وقالت «إلهام» للسائق بالإنجليزية: خذنا إلى أقرب فندق للمطار. فترامقت الباقيات معها.

وقال السائق في فضول: هل أنتن من «أمريكا الجنوبية»؟

سألته «زبيدة» في حدة: ولماذا؟

– إن ملامحك تدل على ذلك، ولكن القليلين من هذه القارة يأتون لزيارة «روسيا»، خاصة في مثل هذا الوقت من العام الذي لا نشاهد فيه من السياح غير تجّار الفراء.

أجابته «إلهام» بنعم، وأخذت تثرثر باللغة العربية قليلاً مع «زبيدة»، وراحت بعدها تتأمل المدينة حولها ... وبقية الطريق.

لزم الجميع الصمت، بعد قليل توقف التاكسي أمام فندقٍ صغيرٍ نظيف، وتم حجز حجرتين، تأكدت «إلهام» أنهما تخلوان من أجهزة التصنت، فقالت لزميلاتها: إن الحرص واجبٌ في مثل هذه الظروف.

عقدت «ريما» حاجبها مندهشة وقالت: إنني لا أفهم لماذا منحنا رقم «صفر» جوازات سفر مدونًا بها أن جنسياتنا عربية؛ فهو أمرٌ كفيل بإثارة الشكوك حولنا، ولولا أن سائق التاكسي هذا لا يصادف كثيرًا من العرب، لتعرف علينا بسهولة.

قالت «إلهام» مفكرة: أظن أن هذا الأمر مقصود من جانب رقم «صفر».

زبيدة: ماذا تعنين يا «إلهام»؟

إلهام: تذكّرنا أننا جئنا نسعى لمطاردة جاسوسة قادرة على التنكر في أية صورة، وأننا نبحت عنها في وسط مدينةٍ تعدادها بالملايين، وبهذا تكون فرصة عثورنا عليها واحدًا في المليون أو أقل ... ولكن إذا بدأ البحث من الناحية المضادة، فسيكون أسهل كثيرًا.

ريما: أتعنين أن رقم «صفر» كان يعتمد أن نكشف أنفسنا بعض الشيء، وأن تسعى «ناتاليا» نفسها لمطاردتنا إذا اكتشفت حقيقتنا؟

سألت «إلهام» باسمه: أليس هذا أفضل؟

قالت «ريما»: إنني أفضل أن أقوم بدور الصياد، لا الطريدة.

إلهام: لا أحد يدري على وجه العموم ما ستأتي به الساعات القادمة ... وكل ما أُرغب فيه الآن هو النوم، بعد هذا السفر الطويل المجهد، خاصّة وقد بدأ الجو يتغيّر ويميل للبرودة.

زبيدة: إن زيارة لـ «روسيا» في الشتاء ليست بالشيء المستحب على كل حال، إلّا إذا كانت المطاردة التي سننطلق خلالها كفيلاً ببعث الدفء في أبداننا.

هدى: ولكننا كالمعتاد، لن نغفل جانب الحراسة والأمان؛ لذلك سنقسم أنفسنا للسهر ليلاً، لمواجهة أي احتمال.

ولكن الليل مرّ هادئاً، وأشرقت شمس الصباح دافئةً لذيذة، وبعد الإفطار تجمعت الفتيات الأربع في حجرة «إلهام» التي قالت: من الضروري وضع خطة وتنفيذها، للوصول إلى «ناتاليا» بأسرع ما يمكن.

هدى: المهم أولاً أن نعرف بأية وسيلة ستسافر هذه الجاسوسة وكيف تغادر البلاد؟! ريما: ليس هناك سوى طريقتين لذلك، وهما إما السفر بالطائرة أو السكك الحديدية. هدى: ولكن السفر بالطائرة له مخاطر غير مأمونة بالنسبة لـ «ناتاليا»، خاصة وهي تعرف أن هناك عيوناً تترصدها، فإجراءات الأمن والتفتيش في المطارات عادة أدق من السكك الحديدية.

إلهام: إذن يبقى أماننا افتراض واحد أنها ستستقل القطار.

زبيدة: ولكن ليس هناك قطار دولي يغادر «ليننجراد» إلى أي من الدول المجاورة. وإذا كنت مكان «ناتاليا» فأفضل طريق ألجأ إليه، هو استخدام الباخرة للسفر إلى «فنلندا»، ومن هناك يمكنني السفر إلى أية بلدة أوروبية أخرى.

تألفت عينا «إلهام» وقالت: إنها فكرةٌ جيدة، وأظن أن «ناتاليا» ستشرع في تنفيذها، إن لم تكن قد قامت بتنفيذها قبل وصولنا.

ريما: هذا يتوقّف على حسن حظنا ... أو سوءه.

ألقت «إلهام» نظرة إلى الخارج عبر حافة نافذة الفندق بزاوية ضيقة، بحيث لا يشاهدها من الخارج، وقالت: أظن أن حسن الحظ في صفنا ... انظرن ... هناك من يراقب الفندق على مسافةٍ من داخل سيارة خاصة، لاحظت وقوفها في مكانها هذا منذ وصولنا مساء أمس، وقد تغير سائقها وبقيت في مكانها لم تغادره.

ألقت «زبيدة» نظرة حذرة للخارج وقالت: إن هذا معناه أن «ناتاليا» لا تزال في «ليننجراد»، وإلاّ فما اهتم شخصٌ ما بمراقبتنا.

هدى: هذا مؤكد ... والمؤكد أيضًا أن هذا الشخص من ضمن أفراد جهاز المخابرات الذي عقد الصفقة مع «ناتاليا» لشراء الوثائق ... وقد عثروا علينا سريعًا.

إلهام: هذا لأننا ألقينا إليهم بالطعم، فعلقوا بالصنارة دون أن يدروا ... ولعل لهم عيونًا في مطار «ليننجراد» دلتهم على وصولنا وهويّتنا ... وإذا ما افترضنا أيضًا أن سائق السيارة التي استقللناها تابع لهم أيضًا، وهو ما وضعته في حساباتي؛ ولذلك تعمّدت الحديث بالعربية أمامه، لكي أنسج الشكوك حولنا، وهو ما نجحنا فيه، بدليل وجود هذا المراقب.

زبيدة: ولكن إلى أين يؤدي بنا ذلك؟ فمراقبة هذا الشخص لنا، لن تفيدنا بشيء.
إلهام: إنها يمكن أن تفيد، لو كشفنا للفريق المضاد أننا نعرف خطوته التالية ... في ميناء «ليننجراد» على خليج «فنلندا» ... وإذا ما أخذنا وجهتنا إلى هناك فورًا، فلا شك أن الأمور ستتطور سريعًا، بعد أن يدركوا أننا نعرف الكثير.

هبت «هدى» واقفة وهي تقول: إنها خطة رائعة ... هيا بنا لتنفيذها.
وغادرت الفتيات الأربع الفندق، وأشرن إلى تاكسي قريب، طلبت «هدى» من سائقه الاتجاه إلى ميناء «ليننجراد».

وفي سهولة لاحظن جميعًا أن مراقبهن استقل سيارته، وأخذ يتبع التاكسي على مسافة قريبة. وغادرن جميعًا التاكسي أمام بوابة الميناء الكبير ... كانت هناك عشرات السفن الروسية في الميناء، وبسهولة استطعن تمييز السفينة المتجهة إلى «فنلندا» ... كان هناك عشرات الركاب يتأهبون للصعود عليها، فالتقطت «إلهام» كاميرتها، وراحت تتظاهر بأنها تلتقط صورًا تذكارية للسفينة والركاب.

وفجأة دوى صوت رصاصة مكتومة، أصابت الكاميرا وهشمتها، على مسافة سنتيمترات قليلة من رأس «إلهام»، التي انتفضت للخلف وقد أخذتها المفاجأة ... وتلاقت عيون الفتيات الأربع غير مصدقات. قالت «هدى» في توتر: «إننا نتعرض لمحاولة اغتيال. هزت «إلهام» رأسها وقالت: لا أظن ... فقد كان من السهل اغتيال لي لو أراد ذلك شخصٌ مدرب على إطلاق الرصاص ... ولكن الهدف كان تحطيم الكاميرا فقط. زبيدة: وهذا معناه أن الكاميرا التقطت صورةً لشخصٍ ما ... كان يجب ألا يلتقط أحد صورته.

تساءلت «ريما»: وما معنى ذلك؟ هتفت «هدى»: ليس لهذا غير معنى واحد ... إن الشخص الذي نبحت عنه فوق ظهر هذه السفينة التي ستبحر إلى «فنلندا» بعد قليل، وقد قادنا حسن الحظ إليها في اللحظة المناسبة. تألّقت عينا «إلهام» وقالت: إنها بذلك تكون ضربة حظ لا مثيل لها أن نصل إلى الميناء في اللحظة المناسبة تمامًا.

وتلفتت حولها باحثة عن الشخص الذي أطلق عليها الرصاص، فلمحت الرجل الذي تبعهن من الفندق، كان واقفًا على مسافةٍ يتظاهر بقراءة جريدته، ولم يكن هناك شكٌ أنه صاحب الرصاصة التي هشمت الكاميرا. ولم يكن هناك أي وقتٍ للتفكير؛ فقد اكتمل ركاب السفينة فوقها، وأوشك عمالها على رفع رصيفها، فصاحت «إلهام»: ماذا ننتظر ... هيا بنا ... لحسن الحظ أننا أحضرنا جوازات سفرنا معنا.

وقفزت «إلهام» إلى الرصيف، فتبعته زميلاتها بسرعة ... وقفزن إلى السفينة في اللحظة التي رفعت فيها مراسيها، وأطلقت صفارة أخيرة ... ثم تحركت نحو الخليج. وفوق الميناء كان الشخص الغامض لا يزال واقفًا مكانه، وقد أزاح الجريدة من فوق وجهه ... وهو يراقب السفينة التي أبحرت في مياه خليج «فنلندا» بنظرةٍ مقطّبةٍ باردة. همست «ريما» تقول لزميلاتها: إن «ناتاليا» فوق هذه السفينة دون شك، وعلينا أن نعثر عليها، قبل وصولها إلى «هلسنكي».

إلهام: وهذا يمنحنا يومين فقط للبحث والتحري. تساءلت «هدى» في قلق: ولكن هل تتذكرين امرأة أو فتاة أثارت ارتيابًا، وأنتِ تصورين ركاب السفينة بكاميرتك يا «إلهام»؟ فسوف تكون هي «ناتاليا» دون شك، وإلا فما أطلق علينا أصدقاؤها الرصاص.

أجابتها «إلهام»: أنتِ على حق في تساؤلك يا «هدى» ... وقد لاحظت بالفعل امرأة عجوزًا لها شعر أشيب وتسير بظهر منحني صاعدة السفينة، ولكنني لمحت أصابعها في نفس الوقت، فقد كانت لدنة ناعمة مشدودة بلا تجاعيد، ولا يمكن أن تكون لامرأة في السبعين من عمرها أبدًا ... ومن الواضح أن هذه المرأة متنكرة. زبيدة: من السهل اكتشاف ذلك الآن ... ولنقم بهذا فورًا.

قاطعتها «ريما» قائلة: ليس هناك داعٍ للعجلة يا «زبيدة»، فلن نستفيد شيئًا إذا قمنا بكشف هذه المخادعة الآن ... بل الأفضل أن نفعل ذلك قبل وصول السفينة بقليل إلى «هلسنكي»، حتى يمكننا أن نستولي على الوثائق منها، ونغادر السفينة بأسرع وقت بعدها.

إلهام: إنها خطة صائبة يا «ريما»، ولكن علينا في نفس الوقت أن نقوم بمراقبة هذه المرأة؛ فقد تحاول القيام بخدعة ما، فلا شك أنها تعرف حقيقتنا، وأنها ربما تقوم بمراقبتنا في نفس الوقت، فلا تنسي أنها امرأة خطيرة جدًا، وهي لن تستسلم لنا بسهولة. هدى: أنتِ على حق يا «إلهام» ... فلن ندع هذه المرأة تغيب عن عيوننا أبدًا، وسنحاذر منها بشدة ... وعلينا أن ننقسم إلى فريقين لمراقبتها بالتبادل ليل نهار، حتى لا تغيب عنا لحظة واحدة.

وبدأت «هدى» و«زبيدة» المهمة ... فراحتا تتبعان السيدة العجوز في كل مكان تذهب إليه ... وانقضى الوقت بطيئًا دون أن يجدا ما يثير شكوكهما. وعندما حان وقت مراقبة «إلهام» و«ريما» كان الليل قد أقبل ... ولكن العجوز لجأت إلى فراشها مبكرًا، غير أن «إلهام» و«ريما» بقيتا في مكان قريب، وعيونهما لا تغفلان عن باب قمرة العجوز.

وقرابة الفجر وعندما ساد السكون تمامًا، انفتح باب حجرة العجوز وظهرت في مدخلها، فتواترت «إلهام» و«ريما» بسرعة.

وأطلت العجوز في حذرٍ، وعندما اطمأنت إلى عدم وجود أحدٍ قريب، غادرت حجرتها وأغلقت بابها، وسارت وهي تتلفت حولها، وصعدت إلى سطح السفينة. كان السطح خاليًا مظلمًا، ولكن سرعان ما لحق بها شخص من قلب السفينة، فوقف الاثنان يتهامسان للحظات ... فهمسست «إلهام» لـ «ريما» في سرور: لقد تأكدت شكوكنا ... إن هذه العجوز هي «ناتاليا» دون شك، وهذا الرجل الذي يحدثها هو أحد أفراد جهاز المخابرات الذي يسعى لشراء الوثائق منها.

همست «ريما» لـ «إلهام» بدورها: دعينا ننتهز الفرصة ونقوم بتفتيش حجرة هذه الذئبة، فقد نتمكن من العثور على أفلام الميكروفيلم بداخلها.
 إلهام: إنها فكرة جيدة، ولكننا لا نملك مفاتيح الحجرات؟!
 قالت: لا تقلقي يا عزيزتي، ففي استطاعتي فَتَحَ الحجرة دون أن أترك أي أثر.
 إلهام: ماذا ننتظر إذن ... هيا بنا.

وتحرَّكت الفتاتان بسرعة ... ولكنهما كانتا سيئتي الحظ، فما كادتَا تلجان الباب المغلق بعد فتحه حتى سمعتا أصواتاً مقتربة، فأسرعتا بمغادرة الحجرة في اللحظة المناسبة، واقتربت العجوز المتكررة من حجرتها ودخلتها وأغلقت بابها خلفها، ومن مكانهما شاهدت «ريما» و«إلهام» ما حدث، وقالت «ريما» لاهثة: لقد كدنا نسقط في الفخ.
 إلهام: ولكن لا تزال أمامنا فرصة في الغد ... فإننا لن ندع هذه الماكرة تغادر السفينة ومعها الوثائق أبداً.

لكن وفي اليوم التالي لم يتح لهما، ولا لـ «زبيدة» و«هدى» تفتيش حجرة العجوز المتكررة؛ لأنها لم تغادرها طوال الليل أو النهار، وعند شروق شمس اليوم التالي، كانت الفتيات الأربع جالسات في غضب يتهاמשن، فقالت «هدى»: لقد تبقت ساعتان فقط على وصول السفينة إلى الشاطئ، ولن تُتاح لنا فرصة تفتيش حجرة هذه الماكرة «ناتاليا».
 ريما: ربما نكون سعداء الحظ، وتذهب لتناول طعام إفطارها فوق سطح السفينة، فنتمكن من تفتيش حجرتها.

وكان حسن الحظ حليفهن هذه المرة؛ فقد ظهرت العجوز صاعدة لأعلى بعد ساعة لتناول الإفطار، فاندفعت الفتيات الأربع إلى الحجرة بسرعة، وتمكنت «ريما» من فتحها بسهولة، وعبرت الحجرة مع الباقيات، وأُغلق بابها عليهن. واندفعن يفتشن كل ركن في الحجرة، محاولات ألا يتركن أي أثر يكشف عن مهمتهن.

ولكن بعد بحثٍ طويل، لم يعثرن على أي شيء ... ومرت الدقائق سريعاً.
 وفجأة صدرت تكة من الخلف، فالتفتن جميعاً وقد أخذتهن المفاجأة ... وظهرت العجوز المتكررة في مدخل حجرتها، وفوق شفيتها ابتسامة ساخرة ... وقالت متهمكة: كان من الغباء دخولكن الحجرة معاً، دون أن تتركن أحداً للحراسة، فهذا من بديهيات العمل السري.

قالت العجوز المزيفة ذلك وأطلقت ضحكة ساخرة عالية ... وإصبعها يتأهب فوق زناد مسدسها، وهي تستعد للضغط عليه نحو رءوس الشياطين الأربعة.

الهروب إلى فنلندا!

عضت إلهام على شفتيها ندمًا وغضبًا ... كان خطوهم لا يُغتفر ... وترامقت مع زميلاتها في غضب مكبوت، وهن يعلمن أن أية حركة أو بادرة مقاومة منهن، سيعقبها إطلاق الرصاص عليهن.

وكان الإحساس الوحيد الذي يسيطر عليهن ... هو إحساس الفريسة التي سقطت في يد صائدتها بحماقة منقطعة النظر!

المفاجأة المذهلة!

ولكن ذلك الشعور ما كان يستمر طويلاً، خاصة مع «إلهام»، وبحركة مفاجئة تدرجت على الأرض، مقتربة من عدوها، وصوبت بقدمها من أسفل ضربةً أطاحت بالمسدس من يد العجوز وطارَت لتصيب غريمَها.

وترنحت العجوز المتنكرة، ولكن وقبل أن تفكر في المقاومة، قفزت «زبيدة» وطوقتها من الخلف بذراعها، وجذبتها «إلهام» هاتفةً في سخرية: إن ما سمعناه عنكِ لا يتناسب مع غبايِكَ الذي أظهرته الآن!

وتجمّدت الكلمات فوق شفّتي «إلهام»، عندما خلعت الشعر المستعار من رأس العجوز ... لم تكن العجوز المزيفة امرأةً ... بل رجلاً!

اتسعت عينا «إلهام» في دھولٍ مطبق ... وحتى زميلاتها بدّت عليهن معالم الصدمة القاسية، وأطلق الرجل المزيف ضحكةً عريضةً ساخرةً بدوره، ثم قال: هل أعجبتكن هذه المفاجأة؟

ضغطت «ريما» على أسنانها، وصرخت في الرجل: لقد خدعتنا. فأجابها متهمكاً: في عملنا كل شيء يجوز ... تماماً كما في الحرب. ضاقت عينا «هدى» وقالت للرجل: ولكنك طوال الوقت رحت تحاول زيادة شكوكنا فيك ... وكنت تسعى لخداعنا.

إلهام: لقد تكشف لي كل شيء الآن ... فلم يكن ما حدثَ إلّا خدعة ... خدعة شيطانية، ابتكرها عقل «ناتاليا»؛ لكي تدفعنا لمطاردتها فوق السفينة، ونحن نظنها متجهة إلى «فنلندا»، وأنها متنكرة في شكل امرأة عجوز، لكي تتخلص منا ومن مطاردتنا، ويتسع لها الوقت لتغادر البلاد في هدوء بوسيلة أخرى، إلى بلد آخر.

قال الرجل ساخراً: ها قد توصل عقلك أخيراً إلى نصف الحقيقة.

تأملت «إلهام» غريمها بغضب مكبوت، وأكملت: ولم تكن الرصاصة التي أصابت كاميرتي، غير جزءٍ من الخدعة لنشك في أن الكاميرا التقطت صورة «ناتاليا» في تنكرها، فنتبعا على السفينة دون أن ندري أننا ننساق خلف خدعة شيطانية ... وأنت تعمدين أن تعمق فينا هذا الشك بتصرفاتك المريبة على السفينة في فجر الليلة الأولى؛ لكيلا نشك في الأمر أو نفطن للحقيقة، إلا بعد أن يكون الطير قد أفلت من القفص.

أطلق الرجل ضحكة ساخرة مرة أخرى وقال: ها قد توصلت إلى بقية الحقيقة، ولكنها لن تفيدكن بشيء للأسف؛ لأن الطير أفلت من القفص مساء أمس، وهو الآن يرفرف بحرية في مكان آخر دون مضايقة من أحد.

صرخت «زبيدة» في غضبٍ نادر: أيها الخبيث، لقد اخترت نهايتك بنفسك وهي أسوأ نهاية، فلن يسعدني أكثر من أن أفرغ رصاص مسدسك في رأسك، أو أن ألقي بك في مياه هذا الخليج لتموت غريقاً مجمداً فيه ... ولكن لا تزال أمامك فرصة أخيرة للنجاة، وهي أن تخبرنا، إلى الوجهة التي اتخذتها هذه الذئبة الماكرة «ناتاليا».

أجابها الرجل ساخراً: إن عرضك لا قيمة له بالنسبة لي لعدة أسباب، أهمها أن بعض زملائي يحتلون أماكنهم الآن فوق السفينة وقريباً من باب حجرتي، وهم مستعدون للتدخل في أية لحظة، وإن لم أغادر حجرتي سالماً خلال دقائق، فستجدن أنفسكن وقد أحاط بكن قبطان السفينة وضباطه، وتهمة قتل تنتظركن لتذهب بكن إلى حبل المشنقة.

طارت قبضة «زبيدة» إلى الرجل، فأنحني متألماً بشدة، فعاجلته «هدى» بضربة أخرى وهي تقول له: إننا نستطيع على أي حال تسليمك لهم، وليس بك عظمة واحدة سليمة.

طارت «ريما» وضربته ضربة قوية، فصدم بالحائط في عنف، فشقق من الألم. زبيدة: والآن ماذا تقول في عرضنا السخي، إننا نمنحك حياتك، مقابل أن تخبرنا إلى أي بلد اتجهت «ناتاليا»؟

أجابها الرجل متألماً بشدة من إصابته: إنني لا أدري ... فهذا الأمر سر لا يعرفه غير «ديفيد يعقوب».

أوشكت «هدى» أن تهوي بضربة على غريمها وهي تصرخ فيه: لا تحاول المراوغة أيها الوجد.

ولكن «إلهام» أمسكت بيدها، وقالت لها في صوت هادئ: لا أظن أن القسوة ستفيد بشيء، فإن رؤساء مثل هذا الشخص، لا يمكنهم أن يغامروا بإطلاعه على الوجهة التي سافرت إليها «ناتاليا»، ونحن أيضاً لا نستطيع المغامرة بتحطيم ضلوعه وعظامه، وإلا واجهتنا مشاكل مع قبطان السفينة، ربما تعطلنا بعض الوقت.

وزفرت في ضيق وهي تضيف: والأفضل لنا أن نغادر هذه السفينة في أسرع وقت. وعندما غادرن الحجرة، كانت هناك عيون حادة ترمقهن في حذر، لم يكن هناك شك في حقيقة أصحابها، فقالت «هدى» في غيظ شديد: لقد صار اللعب على المكشوف، بعد أن أفلت الطير.

لزمّت «إلهام» الصمت ولم ترد، وبعد قليل ألقت السفينة مراسيها في ميناء «هلسنكي»، فغادرت الفتيات الأربع الميناء، وسرن قليلاً خارجه في صمت، وقالت «زبيدة» بوجه محتقن: الآن إلى أين سنذهب؟!

أجابتها «ريما» بوجه شاحب: إن أول ما يجب علينا فعله، إبلاغ رقم «صفر» بما حدث.

ضاقت عينا «إلهام» وقالت: هذا إلا إذا بادر رقم «صفر» بالاتصال بنا أولاً. قالت «هدى»: ولكنه لا يعرف أننا وصلنا «هلسنكي»، فنحن لم نخبره بوجهتنا قبل سفرنا.

إلهام: ولكن من يدري، فإن رقم «صفر» له وسائله في الوصول بسرعة إلى الحقائق. وبعد أن غادرن الميناء، وسرن في طريق هادئ، فجأة اقتربت منهن سيارة خاصة، وتوقفت على مسافة قريبة منهن، وأطل منها وجهٌ مألوف، قال باللغة العربية باسمًا: هل تحتجن إلى توصيلة؟

تبادلت الفتيات الأربع النظرات في دهشة ... وأكمل صاحب السيارة بنفس الابتسامة: إن لديّ رسالة هامة من رقم «صفر» لأجلكن ... وأقدّم لكنّ نفسي ... «عدي رامز» ... ورقمي ١١٣.

في الحال اكتست ملامح الفتيات الأربع بالشك في حقيقة صاحب السيارة، واعتقدن أنها خدعة أخرى من «ناتاليا» أو المتعاونين معها، ولكن «إلهام» تحركت نحو السيارة، وأخذت مكانها في المقعد الأمامي، فتبعتها الباقيات واحتلن المقاعد الخلفية، وتحركت السيارة مبتعدة، وامتدت أصابع صاحب السيارة إلى جيبه، وفي الحال قبضت «إلهام» على ذراعه وهتفت به: ماذا ستفعل؟

فأجابها في هدوء: يمكنك أن تحسلي بنفسك على ما في جيبتي.

وفي حذرٍ دسّت «إلهام» يدها في جيب رقم «١١٣» وأخرجت رسالة كانت مدونة باسمها ففتحتها بلهفة، وجرت عيناها على السطور، قبل أن تدفع وجهها إلى الباقيات، وعلى ملامحها ابتسامة شاحبة ... وهمست تقول: إنها رسالة من رقم «صفر» وهي مزيّلة بتوقيعه الصحيح.

هتفت «ريما» بلهفة: وماذا تقول الرسالة؟
 أجابتها «إلهام»: إن رقم «صفر» يخبرنا أنه تابع ركوبنا السفينة من «ليننجراد»، وأنه كان يعرف بأن هناك خدعة من العجوز المزيفة، بواسطة عميل خاص، كان فوق السفينة.
 تساءلت «ريما» في دهشة بالغة: ولماذا لم يحذرننا في الوقت المناسب؟
 أجابتها «إلهام»: لقد كان جزء من خطته أن يجعلنا ننطلق خلف العجوز المزيفة، ونبتلع الطعام، حتى تأمن «ناتاليا» مطاردتنا لها، وتتحرك في حرية، دون أن تدري أن هناك عيوناً أخرى لرقم «صفر» كانت تراقب أصدقاءها، ومن خلالهم أمكنه الوصول إلى مكانها، وتحديد البلد الذي اتجهت إليه وهو «باريس»!

ظهر الغضب على وجه «هدى» وقالت: كم كنّا أغبياء، كيف لم نفهم ذلك؟!
 إلهام: لا داعي للغضب يا «هدى» ... إن خطة رقم «صفر» أدت المطلوب منها على أي حال ... ولا زالت للمهمة بقية ... فهناك ثلاث تذاكر سفر إلى «باريس» تنتظرنا في مطار «هلسنكي» بعد ساعة من الآن ... وأظن أن الوقت سيتسع لنا لكي نلحق بأول طائرة مغادرة إلى «باريس».

ريما: إن هذه المهمة أشبه بمتاهة بيت جحا ... كل شيء فيها مخادع.
 زبيدة: ربما لأننا نطارد جاسوسة محترفة.
 قال رقم «١٣»: إن رقم «صفر» لم يشأ تعريضك لخطر مباشر، بالاصطدام مباشرة مع «ناتاليا» في «ليننجراد»؛ لأنها كانت ممثلة بضباط المخابرات المعادين، وكانت الأوامر لديهم بقتل من يحاول عرقلة سفر «ناتاليا» دون رحمة ... ولكن في «باريس» سيختلف الوضع كثيراً.

تألفت عينا «إلهام» ببريقٍ حادٍّ وقالت: نعم ... سيختلف الوضع كثيراً في «باريس» ... فقد لنا من الخدع حتى الآن ما يكفيها ... وتحولنا إلى شراك خادعة بما فيه الكفاية، وأن الأوان أن يتبدل الحال وننصب الشباك بأنفسنا هذه المرة، لنمسك بالصيد الثمين، ونلقنه درساً قاسياً.

قالت «ريما» في قلق: المهم أن نصل قبل أن تبادل «ناتاليا» بالوثائق الملايين العشرة في بنوك «سويسرا».

اكتسى وجه «إلهام» بغضبٍ حادٍّ وقالت: وحتى لو كانت هذه المبادلة قد تمت، فسنقلب «باريس» إلى جحيم فوق رأس هذه الذئبة وكل أصدقائها، ولن نطفئ نيران هذا الجحيم، قبل أن نسترد هذه الوثائق وأفلام الميكرو فيلم.

وأضافت في صوت عميق: والموت أهون عندي من الفشل في هذا الأمر.

باريس ... الجنة والجحيم!

كان في انتظار الشياطين الأربعة أحد رجال رقم «صفر» في «باريس»، وقدم نفسه إليهن وسيارته «الستروين» تشق قلب العاصمة الفرنسية: إنني أدعى «كامل كريم» ... المسئول عن مكتب الشياطين في «باريس»، ومسئول العمليات الأول في أوروبا بأكملها.

تساءلت «إلهام»: متى وصلت «ناتاليا» «باريس»؟
أجابها «كامل»: صباح أمس ... ومنذ هذه اللحظة ونحن نضعها تحت مراقبة كاملة.
زبيدة: هل وصلت متكررة؟

كامل: هذا صحيح ... فقد تنكرت في هيئة إحدى المضيفات الروسيات، واستطاعت بسهولة أن تستقل الطائرة المغادرة إلى «باريس»، دون أن يشك أحد فيها، في «موسكو».
تبادلت الفتيات الأربع نظرات صامتة مقطبة ... كانت الجاسوسة تثبت لهن كل مرة أنها قادرة على كسر توقعاتهن وتخمينهن.

ريما: وعملية التبادل ... متى ستتم؟
هز «كامل» كتفيه مجيباً: لا أدري ... فإن مراقبتنا لها منذ وصولها لم تؤدِّ إلى شيء.
إلهام: إنني أتصور أن مراقبتكم للطرف الآخر، قد تصل إلى خيط ما.
أجابها «كامل»: إن رجال المخابرات المضادة ليس من السهل خداعهم، ولكننا نبذل كل جهد في سبيل ذلك، وقد لاحظنا بالفعل وصول مسئول كبير في جهازهم إلى «باريس» منذ ساعات قليلة، وهو ما يعني أن عملية تسليم الوثائق ستتم قريباً.
فجأة صرخت «زبيدة»: حاذر يا سيد «كامل».

ولكن صرختها جاءت متأخرة قليلاً ... فقد اندفعت سيارة «مرسيدس» سوداء من الخلف لتقطع الطريق على سيارة الشياطين، وانطلق من السيارة سيل من طلقات الرصاص اخترق زجاج «الستروين» وهشمه، وفي الحال ألقت الفتيات الأربع بأنفسهن

لأسفل، وأدار «كامل» مقود سيارته بكل قوته ليتحاشى سيل الرصاص، ولكن إحدى الرصاصات أصابته في كتفه، فانحرف بسيارته بشدة تجاه نهر «السين» ... واصطدمت السيارة بسور النهر، ولكن وقبل أن تسقط في قلبه، استطاع «كامل» السيطرة عليها ثانية، وأوقفها في اللحظة الأخيرة.

صاحت «ريما» في غضب شديد: لنسرع بمطاردة هؤلاء المجرمين.
لكن «كامل» أجابها متألاً: لقد لفتنا الأنظار بما فيه الكفاية، فلنسرع بمغادرة هذا المكان قبل وصول الشرطة، وإلا تعرضنا لاستجواب لا داعي له.
إلهام: دعني أقود السيارة بدلاً منك.

أخذت مكانه إلى عجلة القيادة، وانطلقت بالسيارة «الستروين» بكل سرعتها ومن الخلف سمعوا صوت سريّة سيارة الشرطة، فهتفت «ريما» بضيق: لم يكن ينقصنا غير ذلك.

قال «كامل» متألاً لـ «إلهام»: لا تتوقفي، فإن ذلك سيعرض العملية كلها للفشل.
فأطلقت «إلهام» العنان للسيارة، وكانت الرصاصات التي أطلقت عليها لحسن الحظ لم تصب غير الزجاج الأمامي ... ولكن كان المرور المزدحم عائقاً أمام «الستروين»، فأخرجت «زبيدة» من جيبها منديلاً أبيض، لوّحت به من نافذة السيارة، وفي الحال أفسحت السيارات المارة الطريق للسيارة «الستروين»، وتحولت الإشارة الحمراء إلى خضراء في لمح البصر، فانطلقت «الستروين» بكل سرعتها، واستطاعت الاختفاء عن سيارة الشرطة التي تكدست السيارات الأخرى أمامها.

قالت «هدى» في دهشة: إنني لا أفهم السر فيما فعلته يا «زبيدة»؟
أجابتها «زبيدة»: لقد شاهدت مثل ذلك في أحد الأفلام الفرنسية، فعندما تحمل أي سيارة مريضاً أو مصاباً يتعين نقله للمستشفى بسرعة، فإن أحد ركاب السيارة يلوح بمنديل أبيض ليعبر للسيارات الأخرى بأنه يحمل مريضاً أو مصاباً إلى المستشفى، فتفسح له بقية السيارات الأخرى الطريق على الفور، ولا توقفه أية إشارة.

كامل: ولكن لا شك أن رجال الشرطة الذين كانوا يسعون خلفنا، تمكنوا من التقاط أرقام سيارتي، وسنجدهم في انتظارنا أمام باب منزلي، وسنكون مطالبين بتقديم تفسير لهم.

زبيدة: وبالطبع فإننا لن نستطيع الذهاب إلى أي مستشفى لاستخراج الرصاصات من كتف السيد «كامل»!

قال «كامل» و«ريما» تربط ذراعه لإيقاف النزيف: هناك منزل ريفي أملكه على أطراف «باريس»، ولن تستطيع الشرطة الاهتداء إليه قبل وقت. وانطلقت السيارة إلى المنزل الريفي ... كان كل شيء حوله هادئاً ولا توجد أية منازل قريبة منه على مسافةٍ بعيدة ... فأخفت «إلهام» السيارة وسط الأشجار القريبة، وبعد دقائق كانت تقوم باستخراج الرصاصة من كتف «كامل» وتنظف جرحه. فقال لها باسمًا: إنك طبيبة بارعة.

إلهام: الحمد لله إصابتك سطحية، فمن ضرورات عملنا إجادة بعض الجراحات البسيطة والتمرين عليها، ولحسن حظك كانت إصابتك سطحية. زبيدة: إن ما حدث يكشف أن الجانب الآخر، قد صار على علم بوصولنا، وأنهم اتخذوا قرارًا بتصفيتنا فورًا، حتى لا تفسد عملية تسليم الوثائق. ريما: لقد بدأ الصراع يصير مكشوفًا ... وإطلاق الرصاص علينا في قلب «باريس» بطريقة عصابات «شيكاغو»، يعني أن الجانب الآخر مستعدٌ ليفعل أي شيء، من أجل عدم إفسادنا الصفقة.

في هذه اللحظة تجهّم وجه «إلهام» وقالت: نحن أيضًا على استعداد لأن نفعل أي شيء من أجل إفساد هذه الصفقة، مهما كان الثمن. تحرك «كامل» متجهًا إلى مكان الهاتف قائلًا: سوف أجري مكالمة سريعة، فربما كانت هناك معلومة جديدة بشأن الصفقة، تمكن رجالي من التقاطها. وأدار قرص الهاتف، وتحدث بالفرنسية ... كان حديثه يبدو عاديًا وهو يسأل شخصًا آخر على نوعٍ معيّن من الأخبار ويستمع إلى إجابته ... وأعاد السماعه مكانها وتألقت عيناه، والتفت إلى الشياطين قائلًا: لقد تمكن رجالي من التقاط معلومة هامة، فإن عملية تسليم الميكروفيلم ستتم داخل أحد فنادق «مارسيليا» هذا المساء. هبت «زبيدة» واقفة وهي تقول: ماذا ننتظر إذن ... هيا بنا.

واتجهن خارجين بسرعة، وقال «كامل»: سوف نضطر لاستخدام سيارتي حتى نصل إلى الطريق العام، ومن هناك نستقل سيارة تاكسي إلى «مارسيليا»، لأنه لا تمر سيارات تاكسي في هذا المكان.

قالت «ريما»: لا بأس بذلك، وسأقود السيارة بنفسي. واندفعت نحو مكان السيارة المخفاة ... على حين وقف «كامل» على مقربة يلتقط أنفاسه، وما كادت «ريما» تمد يدها إلى باب السيارة لتفتحه، حتى صرخت فيها «إلهام»: حاذري يا «ريما»!

وطارت «إلهام» في الهواء وأمسكت «ريما» من وسطها، وسقطت الاثنتان على الأرض وأخذتا تتدحرجان على الأرض خلف شجرة عريضة، وفي نفس اللحظة دوى انفجار شديد، وتحولت «الستروين» إلى كتلة من النيران.

الموت بين الأشجار!

اندفعت «هدى» صارخة إلى «إلهام» و«ريما»، وهتفت: هل أصابكما مكروه؟ ولكن الشيطانان تحاملتا على نفسيهما ونهضتا بوجهٍ شاحب، وهمست «ريما» تقول غير مصدّقة: لقد كاد هذا الانفجار أن ينسفنا ويمزقنا إلى ألف قطعة. واقترب «كامل» في ذهول، وتأمل سيارته المنفجرة، ثم التفت إلى «إلهام» قائلاً: كيف عرفت أن السيارة تم تلغيمها ونحن بالداخل؟ أجابته «إلهام» بوجهٍ مقطب: لقد لمحت أثر قدم غريبة أمام باب السيارة، فشككت في أن شخصاً ما تتبعنا إلى هنا، وانتَهز دخولنا منزلك الريفى، فقام بتلغيم السيارة لتنسفنا فور ما إن تفتح أبوابها. احتضنت «زبيدة» «إلهام» وقبلتها قائلة: أنت رائعة يا «إلهام» ... وقد أنقذتنا من الموت شدةً ملاحظتك.

هدى: إن هؤلاء الأوغاد مُصرُّون على تحويل «باريس» إلى جحيم بالنسبة لنا ... ونحن نقبل التحدي على أي حال.

ريما: ماذا تنتظرون ... دعونا نغادر هذا المكان بسرعة قبل أن يلفت الانفجار أنظار رجال الشرطة، فيمتلئ بهم المكان.

كامل: إنني أعرف طريقاً مختصراً وسط الأشجار يوصلنا للطريق العام، فلنسرع باستخدامه ... واندفع إلى الأمام، فتبعته الفتيات الأربع بسرعة ... كانت صفوف الأشجار متراصّة من كل اتجاه بامتداد البصر ... فسارت «إلهام» في حذرٍ وهي تتلفت حولها ... كان لديها إحساس بالخطر، وقد كانت محقّة في شكوكها.

ففي اللحظة التالية دوّت أصوات طلقات رصاص، فألقت «إلهام» بنفسها على الأرض، متدحرجةً لتحتمي بإحدى الأشجار، وتبعها الباقيون على الفور، فتوقف إطلاق الرصاص ... وهمست «إلهام» تسأل الباقيين: هل أصابكم شيء؟

وجاءت الإجابة بلا. وقالت «زبيدة» في غضب: يبدو أن تحركاتنا كلها مرصودة، وأنهم تحسبوا لاحتمال عدم استخدامنا «الستروين»، فكمنوا وسط الأشجار للتخلص منا. ريما: من سوء الحظ أننا لا نمتلك أي سلاح. كامل: كانت لديّ أسلحة لكنّ، مخفأة في «الستروين»، ولكن لا أظن أنها ستصلح لشيء الآن بعد انفجارها.

هدى: ولكننا لن نستطيع البقاء مكاننا ... وعلينا التصرف بسرعة للحاق بـ «ناتاليا» في «مارسيليا».

وما كادت ترفع رأسها حتى دوى صوت طلقات رصاص مرة أخرى. ولحت «هدى» عدوها ... كان شخصاً وحيداً على مسافة قريبة، وقد اختبأ خلف إحدى الأشجار، مصوباً مدفعه الرشاش إليهم ... كان الموت ينتظرهم هناك ... بين الأشجار.

همست «إلهام» لـ «ريما»: أين سكينك الصغير الذي تحتفظين به للطوارئ؟ فأخرجته «ريما» من جيبها قائلة: ها هو ... ولكن بماذا سيفيدك؟ قبضت «إلهام» على السكين بين أصابعها، دون أن ترد بشيء، وقفزت للأمام متدحرجة وسط الأعشاب ... فانطلق الرصاص خلفها، وظهر غريمها مكشوقاً على مسافة قريبة، وفي لحظة مباغتة، طوّحت بالسكين الصغير، عندئذٍ توقف إطلاق الرصاص.

سمعت «إلهام» صوت غريمها وهو يسب ويلعن ... كان السكين قد استقر في ذراعه اليمنى ومنعه من استخدام سلاحه، فانطلق جاريًا بكل سرعته ... ومن الخلف انطلقت «إلهام» وراءه وقد ظهر الطريق العام على مقربة.

ولكنها وصلت متأخرة، بعد أن استقل غريمها سيارته وانطلق بها ... فوقفت لاهثة، ولحق بها الباقون، فاستدارت إليهم «إلهام» صامته في غضبٍ وهي تقول: لقد أفلت برغم كل شيء.

ربتت «ريما» على كتفها قائلة: لا عليك، فقد لقنّته درسًا قاسيًا على أي حال. كامل: إننا بحاجة إلى سيارة، وأعتقد أنه ليس من الحكمة الآن استخدام سيارة تاكسي فربما يكون رجال الشرطة قد أذاعوا نشرةً بأوصافنا لسائقي التاكسيات ... وليس أماناً غير استئجار سيارة من أحد مكاتب تأجير السيارات؟

إلهام: وهل يوجد مكتب قريب لتأجير السيارات؟ أوماً «كامل» برأسه وقال: نعم ... هناك مكتب على مسافة خمسمائة متر فقط، فدعوني أذهب إليه وحدي وأعود إليك بالسيارة، حتى لا يثير منظر كن الشكوك.

زبيدة: هذا تفكير صائب، وسوف ننتظر في هذا المكان فلا تتأخّر.
أوماً «كامل» برأسه مرة أخرى، وسار باتجاه الطريق العام ... وبقيت الفتيات الأربع في أماكنهن على حافة الطريق خلف بعض الأشجار.
وقالت «هدى» ساخطة: إن هذه المهمة هي أسخف مهمة صادفتها في حياتي ... فمفاجأتها لا تنتهي، ودائمًا نؤخذ على غرة، وحتى الآن فإننا لم نبدأ الهجوم مرة واحدة ... وكل ما قمنا به هو مجرد دفاع عن النفس ورد فعل، لم يؤدّ إلى شيء.
زبيدة: وأسوأ ما في الأمر أن تحركاتنا كلها مكشوفة مسبقًا ... كأن هناك عينًا سحرية تراقبنا.

هدى: أخشى أن يكون رقم «صفر» يتخذنا كطعم هذه المرة أيضًا.
ريما: من يدري، فقد بدأت أعتقد أن كل شيء ممكن في هذه المهمة.
ولاحظت الفتيات الثلاث صمت «إلهام» وشرودها، فسألتها «ريما»: ماذا بك يا «إلهام» ... فيم تفكرين؟!

أجابتها «إلهام» في جمود: هناك أشياء كثيرة بدأت تثير شكّي وتسبب لي عدم الارتياح.
هدى: أنا أيضًا أحس بعدم الارتياح منذ وصولنا «باريس»، بسبب تلك المحاولات المكشوفة لقتلنا أو التخلص منا بأي ثمن.
إلهام: هذا هو بالضبط ما أفكر فيه، فإن محاولات التخلص منا بتلك الطرق المكشوفة لا تريحني، خاصة وأنا نواجه عدوًا داهية ... وآخر ما أفكر فيه هو استعراض القوة بمثل هذه الطريقة.

زبيدة: هذا صحيح ... وقد بدأت أضع يدي على أول خيطٍ لحل هذا اللغز.
تساءلت «هدى» في حيرة: ماذا تقصدين يا «إلهام»؟
وقبل أن تنطق «إلهام» بشيء ... فجأة علا صوت من ميكروفون قريب يقول بالفرنسية: لا فائدة من الهرب أو المقاومة أيتها الإرهابيات ... فالمكان محاصر من كل مكان.

تلاقت عيون الشياطين في صدمة مباغته ... واستدارت عيونهن ليشاهدن العشرات من رجال الشرطة، وقد أحاطوا بالطريق العام.
تراجعت الفتيات الأربع للخلف في دهشة، ليحتمن بالأشجار خلفهن، ولكن صوت آخر جاء من وراء يقول: لا فائدة من محاولة الفرار ... فالمكان محاصر من كل اتجاه.
وظهر من الخلف العشرات من رجال الشرطة شاهرين أسلحتهم ... فتجمد الشياطين بأماكنهن في ذهول ... وجاء صوت قائد الشرطة يقول في تحذيره: لا تحاولن المقاومة ولا

استخدام أسلحتكن، فالأوامر لدينا هي الحصول عليكن أحياء ... أو موتى ... فنحن كنا
ننتظر وصولكن منذ يومين كاملين.
عضت «ريما» على شفتيها بقسوة قائلة: إنني لا أفهم شيئاً مما يدور حولي ... وأشعر
كأنني طائر أحمق سعى إلى الشَّرك بقدميه.
وكان هذا هو نفس إحساس الباقيات ... وكان من المؤلم أن يراودهن نفس الإحساس
المؤلم مرتين متعاقبتين ... في أقل من ٢٤ ساعة!

الخدعة الجهنمية!

قالت «إلهام» بصوت هامس: علينا أن نفلت من قبضة الشرطة بأي ثمن وإلا ضاع كل شيء، فمن الواضح أن أعداءنا بوسائلهم الخاصة، تمكنوا من إبلاغ الشرطة ضدنا منذ بضعة أيام، باعتبارنا إرهابيات؛ ولذلك ينتظرنا تحقيق طويل على أيديهم سيفسد كل شيء.

ريما: وما العمل الآن ... كيف سنهرب من هذا الحصار؟

إلهام: سنتظاهر بالاستسلام، وبعدها ...

تحركت للأمام رافعة يديها، فتبعتها زميلاتها في صمت، وحملت الابتسامة وجه قائد الشرطة وهو يقول: لقد أحسنتن بالاستسلام ... فلا أمل لكُنَّ في الهرب.

وتقدم مع عدد من الرجال شاهرين أسلحتهم ... ولكن وفي حركة مباغطة، لاحظت «إلهام» وجود عدد من المدافع الرشاشة داخل سيارة بها مفتاحها، ولا يوجد بها أحد، قفزت «إلهام» بسرعة إلى داخل هذه السيارة وتبعتها الفتيات، واستولت كل واحدة على سلاح، وصاحت «إلهام»: أوامر رجالك بإلقاء أسلحتهم على الأرض والتراجع للخلف.

وصاح في رجاله: ألقوا أسلحتكم وتراجعوا للخلف ... وفي الحال نفذ الرجال أوامره. وبسرعة قادت «ريما» السيارة منطلقاً بها بكل سرعتها.

وقالت «زبيدة» غاضبة: سوف تنطلق الآن خلفنا نصف شرطة البلاد، فإن تهديد رجال الشرطة، واختطاف سياراتهم وأسلحتهم، ليست تهماً سهلة بأي حال.

ولكن «إلهام» لم ترد بشيء، وقالت «ريما» في ألم: كيف سنهتدي إلى مكان السيد «كامل» الآن، لنعرف منه في أي فندق بـ «مارسيلييا» ستتم عملية تسليم الوثائق؟

ولكن من الخلف علا نغير سيارة أمريكية عريضة ... وهتفت «زبيدة» وهي تنظر تجاه قائدها: إنه السيد «كامل» ... لقد تصرّف بطريقة رائعة.

وأوقف «كامل» سيارته على مقربة، فغادرت الفتيات الأربع سيارة الشرطة، وبعد لحظات كانت السيارة الأمريكية تنطلق بهن بكل سرعتها، وقال «كامل» في دهشة: إنني لا أدري كيف اكتشفت الشرطة مكانكن بهذه السرعة؟! فما كدت أدخل مكتب تأجير السيارات، حتى شاهدت رجال الشرطة يحاصرون مكانكن، ولكنكن تصرفتن بطريقة رائعة لحسن الحظ وأمكنني اللحاق بكن.

قالت «ريما» في لهفة: فلتسرع بنا إلى «مارسيليا»، فلم يعد متبقيًا وقتٌ كبيرٌ على حلول المساء.

ولكن ابتسامة عريضة علت وجه «إلهام» وهي تقول: لا أظن أننا نتعجل الوصول إلى «مارسيليا» بأي حال ... وأرى أنه لا يزال أماننا متسع من الوقت في «باريس» قبل مغادرتها.

هتفت «هدى» في دهشة: ماذا تقولين يا «إلهام» ... ماذا سنفعل في «باريس» في هذا الوقت والصفقة توشك أن تتم في «مارسيليا»؟!

والفتت «كامل» إلى «إلهام» قائلاً: إنني لا أدري ما تعنيه بقولك هذا؟! صوبت «إلهام» مسدسها نحو «كامل» وهي تجيبه: قد يفسر لك ذلك ما أعنيه! علت الدهشة وجوه بقية الشياطين، وحقق «كامل» في المسدس المصوب إلى رأسه وقد انعقد لسانه من الذهول ... وقالت «إلهام» في لهجة بطيئة عميقة: هل تستدير بسيارتك للعودة إلى «باريس» يا سيدي «ديفيد يعقوب»، أم أن نعود بها بأنفسنا؟! اتسعت عيون الشياطين بذهول لا حدَّ له، وغمغت «ريما» في ذهول: «ديفيد يعقوب» ... أين سمعت هذا الاسم من قبل؟

إلهام: إن هذا المخادع هو المسئول الأول عن عمل مخابرات بلاده في «باريس»، وهو المسئول أيضًا عن إتمام عملية استلام الوثائق والميكروفيلم من «ناتاليا».

قالت «زبيدة» في ذهول: إنه ليس إذن عميل رقم «صفر» في «باريس»؟! إلهام: لقد انطلت الخدعة عليَّ بعض الوقت ... ولكن ليس كل الوقت.

بان الحقد في عيني «ديفيد» وهو يرمق «إلهام» بنظرات نارية واستدار ببطء ليعود بسيارته إلى قلب «باريس» مرة أخرى ... وفي بطاء رمل «إلهام» بنظرة كريهة في مرآة سيارته الداخلية وهو يقول لها: كيف اكتشفت الحقيقة؟

— في البداية لم أشك في شيء، وإن كان قد أدهشني عملك كمسئول عن مكتب الشياطين في «باريس»، فلا بد أنك معروف لـ «ناتاليا» ومَن يعملون معها، ومن الغباء أن تخاطر

بظهورك معنا علناً، فهذا وحده كفيل بلفت الأنظار إلينا ... ولكنني أخفيت دهشتي خاصة عندما تعرضنا لحادث إطلاق الرصاص علينا في قلب «باريس»، وبدا لي أن مخابرات الأعداء تريد تصفيتنا وأنت معنا ... وهذا بالطبع كان يؤكد صدق روايتك وينفي عنك أي شك، خاصة أنك الوحيد الذي أصبت بيننا ... وإن كانت إصابتك سطحية، لأن من أطلق الرصاص من رجالك كان ماهراً حقاً.

جزّ «ديفيد يعقوب» على أسنانه ولم يرد ... وواصلت «إلهام»: وبعدها قُدتنا إلى منزلك الريفي بدعوى الاختباء عن عيون الشرطة، ولكن الحقيقة أنك أردت التخلص منا في ذلك المكان المنعزل، دون أن يشعر بنا أحد، فقام أحد رجالك، وهو من أطلق علينا الرصاص وسط الأشجار، بتلغيم السيارة بحيث تنفجر فينا عندما نفتح بابها، وأقنعتنا باستخدامها لكي نصل إلى الطريق العام، لتتمكن من التخلص منا. وفي ذلك الوقت فإنك لم تتقدم معنا لركوبها، وبقيت على مسافة بعيدة لكيلا يصيبك الانفجار، ولكنني لحسن الحظ لمحت آثار أقدام من قام بتلغيم السيارة، قريباً منها، ولأنني قوية الملاحظة عادة، فقد تذكرت أن هذه الآثار لم تكن موجودة من قبل، فتأكدت أن شخصاً ما عبث بالسيارة وربما قام بتلغيمها؛ ولهذا سارعت باللقاء «ريما» على الأرض حتى لا تنفجر فينا السيارة.

وصممت لحظة وهي تراقب التعبيرات التي ارتسمت على وجه «ديفيد» قبل أن تضيف: لقد بدأ الشك يراودني في حقيقتك منذ هذه اللحظة ... ولكن بعد أن ذهبت لاستئجار سيارة لنا وحدك، وظهور الشرطة في لحظة مباغطة غير متوقعة، تأكدت أنك أنت الذي اتصلت بهم لكي يأتوا للقبض علينا، ورحت تراقب الموقف من بعيد ... وبعد أن فشلت في التخلص منا ... لأننا تمكنا من الهرب، فأسرعت خلفنا محاولاً إبعادنا بأكبر مسافة ممكنة عن «باريس» ... وإيهامنا أن الصفقة ستتم في «مارسيليا» ... وليس في «باريس».

غمغم «ديفيد» في حقد: أيتها الشيطانة ... أي عقل تملكين؟

إلهام: إنه ليس مثل عقلك بالتأكيد يا وغد؛ فقد تمكنت من خداعنا فوق سفينة «ليننجراد» لكي نطارد سراً، وحتى تتمكن «ناتاليا» من مغادرة «روسيا» دون مضايقة منا، وكانت خدعتك مدهشة حقاً ... وحاولت أن تضيف إليها خدعة أخرى، ولشدة غرورك وثقتك بنفسك، فإنك لم تعهد إلى أحد رجالك بتنفيذها ... بل قمت بها بنفسك لتتباهى أمام رؤسائك، أو ربما طمعاً في الحصول على ترقية أو مكافأة ... ولكن أظن أنك ستحصل على شيء آخر.

وتحرّكت أصابعها وهي تجذب إبرة الأمان عن المسدس قائلة: من المؤسف أننا لا نستطيع الاهتمام إلى مكان رجل رقم «صفر» الحقيقي «كامل كريم» ... فمن المؤكد الآن أنه

يرقد جثة هامة في مكان ما، بعد أن تخلصت منه لتحل محله، وأنت تعلم يا عزيزي أن الموتى لا ينطقون، وعلى ذلك فهو لا يمكنه أن يخبرنا أين ستسلم «ناتاليا» رجالك الوثائق ... ولكنك تستطيع أن تخبرنا بذلك بدون شك.

أطبق «ديفيد» شفتيه وقال من بين أسنانه في حقد: إنك واهمة لو ظننت أنني سأفعل ذلك.

إلهام: أنت ستكون واهماً إذا ظننت أنني سأتركك تفعل ما يحلو لك.
وضربت رأس «ديفيد»، وهو فوق مقعد القيادة، فترنحت السيارة بشدة واختل توازنها من قبضة «ديفيد»، واندفعت نحو سور كورنيش نهر «السين» واقتحمته في عنف ... وصرخت «زبيدة»: اقفز من السيارة وإلا غرقنا.

وفي لحظة واحدة انفتحت أبواب السيارة، وقفزت «إلهام» و«ريما» و«زبيدة» و«هدى» منها فوق سور الكورنيش، وتشبثن بإفريز النهر، على حين اندفعت السيارة الضخمة بكل ثقلها وارتطمت بالمياه، وأخذت تغوص فيها بسرعة، حتى اختفت عن الأنظار فوق سطح المياه المظلم.

قطب وجه «زبيدة» وهمست في ذهول: لقد غرق «ديفيد» ... وغرق السر معه، وسيستحيل علينا الآن معرفة المكان الذي سيحصل منه الأعداء على الوثائق.

أطرقت «إلهام» برأسها للأرض في صمت ... وعيون زميلاتها تراقبها في لوم.
لقد اكتشفت «إلهام» حقيقة الخدعة التي نسجها لهم عدو ماهر ... ولكنها تصرفت في نفس الوقت بطيش فأضاعت كل شيء ... وغرق السر مع «ديفيد يعقوب» في قلب نهر «السين».

خط النهاية!

يقع الحي اللاتيني فوق ربوة عالية في «باريس» تطل على كثير من أجزائها، وفي الليل يبدو المشهد ساحرًا من أعلى، والأضواء المتلألئة من بعيد، تبدو كما لو كانت نجومًا صغيرة استقرت فوق الأرض ... ولكن الشخص الذي راح يصعد السلالم المتدرجة لأعلى، لم يكن لديه وقتٌ ليتأمل المشهد الساحر أمامه، واقترب من زقاق ضيق، ووقف يلهث في نهايته، ومسح بيده جبهته ... كانت لا تزال هناك آثار دماء فوقها، ذلك وقد وشت ملابسه المبتلة أنه حصل على حمام إجباري ... وتوقف ذلك الشخص في نهاية الزقاق، وطرق بابًا بطريقة معينة ... وسقطت بقعة ضوء على وجهه من فتحة صغيرة في الباب من الداخل كشفت ملامحه ... وهتف شخص من الداخل غير مصدق: مسيو «ديفيد يعقوب»؟!

زمجر «ديفيد» قائلًا: افتح أيها الغبي فلا وقت لإضاعته.

وانفتح الباب فقفز «ديفيد» للدخل، وتساءل في صوت لاهث: هل «ناتاليا» بالداخل؟ أجابه الآخر: نعم، وقد تسلمت إخطارًا بتحويل عشرة ملايين دولار إلى حسابها في «سويسرا»، ونوشك أن نتسلم منها الوثائق.

هتف «ديفيد»: رائع ... هيا بنا نلحق هذه اللحظة الهامة.

وسرعان ما صعدا السلالم للدخل، وتساءل الشخص الآخر في دهشة لـ «ديفيد»: ألم يكن مفترضًا سفرك إلى «مارسيليا» مع الفتيات الأربع لتضليلهن هناك، لحين إتمام الصفقة يا سيدي؟

أجابه «ديفيد» ساخرًا: لقد تغيرت الأمور فجأة بعد أن اكتشفنا حقيقة خدعتنا، ولحسن الحظ أن سقطت سيارتي في نهر «السين»، فأمكنني مغادرتها بعد غرقها، والخروج من جانب بعيد في النهر، وأخفاني الظلام عن عيون أولئك الفتيات، وظنن أنني غرقت، فأمكنني العودة إلى هنا في اللحظة المناسبة.

واندفع إلى داخل حجرةٍ واسعةٍ بها عدد من الرجال المسلحين، وقد جلست وسطهن امرأةٌ حسناء في العقد الثالث من عمرها ... تطل من عينيها نظرة دهاء حاد ... كانت هي «ناتاليا فاسيليقتش».

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه «ناتاليا» وهي تقول: مرحبًا بك يا «ديفيد» ... أرجو أن تكون قد نجحت في تنفيذ خطتي.

غمغم «ديفيد»: لقد انكشف كل شيء في اللحظة الأخيرة، ولكنني تمكّنت من الاختفاء وأسرت إليك يا عزيزتي «ناتاليا» ... لنحتفل بانتصارنا معًا. وضاعت عيناه وهو يُصيف: وأرجو ألاّ تتحدثي مرة أخرى لأحدٍ بأنها كانت خطتك ... فإن تقريرتي الذي أعدته لرؤسائي يقول إنني صاحب هذه الخطة ... وأنتظر بسببها ترقية ضخمة.

ناتاليا: لا بأس ... إن ما يهمني هو النقود فقط ... ولا شيء آخر. ضاقت عينا «ديفيد» وهو يجيبها: وقد حصلت على النقود ... الآن فإننا ننتظر أن نحصل على ما يخصنا ... فيلم الوثائق السرية. أطلقت «ناتاليا» ضحكة قصيرة، وأخرجت من حقيبتها علبة صغيرة، سلمتها إلى «ديفيد» قائلة: إن الميكروفيلم بداخل العلبة.

مد «ديفيد» يده ليلتقط العلبة هاتفاً: هذا رائع ... لقد حصلنا على ما نبغي أخيرًا. ولكن وفي نفس اللحظة، تحطمت نافذة الحجرة، واندفع شخص إلى الداخل في لحظة مباغته تمامًا، شاهراً مدفعاً رشاشاً في يده وهو يقول: لا أظن أن هذا الفيلم يخصك! كانت «إلهام» ... وقد ظهرت في لحظة مباغته تمامًا ... وخلفها اندفعت «ريما» و«زبيدة» و«هدى»، وبدأ على «ديفيد» كأنما أصابه شلل وهو يحدق في الفتيات الأربع غير مصدق.

وقبل أن تمتد أيدي الحراس إلى أسلحتهم، صوبت «هدى» و«زبيدة» مدفعيهما قائلتين في صوتٍ واحد: إن أقل مقاومة كفيلة بإرسالكم جميعاً إلى الجحيم ... والآن ألقوا بأسلحتكم على الأرض. ففعل الحرس ذلك، وقامت الاثنتان بتقييد أيديهم وأرجلهم ... ومدّت «إلهام» يدها لتلتقط علبة الميكروفيلم من يد «ديفيد»، وفي بضعٍ أشعلت عود ثقاب قربته منها.

وصرخ «ديفيد» في جنون: لا ... لا تدمري الميكروفيلم. ولكن ضربة خفيفة من «ريما» ألقتة على الأرض دون حراك، وقامت «ريما» بتقييده أيضًا ... وشاهد الجميع النار وهي تلتهم الميكروفيلم وتدمره ... فقالت «هدى» في هدوء: إن هذا يُنهي المسألة تمامًا.

وأشارت إلى «ديفيد» ساخرةً مضيفة: إن العمل السري لا يصلح للهواة أمثالك أيها الغبي ... فقد أتحت لنا الفرصة للوصول إلى مكان تسليم الميكروفيلم بسرعة ... وتركنك تغادر ضفة النهر وأنت تظن أنك خدعتنا بغرقك، وتتبعناك إلى هنا في اللحظة المناسبة ... ولا أظن أن محاولة استجوابك كانت ستؤدي إلى هذه النتيجة.

واللتفتت إلى «إلهام» باسمه وهي تضيف: كانت خطتك رائعة يا «إلهام» ... في إغراق سيارة هذا الوغد لتُتيح لي فرصة الهرب ... حتى نتتبعه إلى هنا ... وقد جازت عليه الخدعة هذه المرة وهو يتخفّى عند حافة النهر ليراقبنا، ونحن نتظاهر بعض أصابع الندم. تحركت «ناتاليا» ببطء مغادرة مقعدها وهي تقول لـ «إلهام»: إنني أعترف لك بالبراعة حقاً ... وقد حصل كلُّ منا على ما كان يسعى إليه ... المال ... و«الميكروفيلم» ... وبهذا انتهت المطاردة، ولم تعد هناك أية مشكلة ... بيني وبينكم على الأقل.

رمقتها «إلهام» بعينين مقطبتين وقالت: هذا صحيح ... فليس بيننا عداً شخصي ... وبرغم كل ما خططته ضدنا للتخلُّص منا، وخيانتك لواجبك، وتعرض أمن بلادنا للخطر، فإن أخلاقنا تمنعنا من إطلاق الرصاص على شخصٍ أعزل.

ناتاليا: هذا رائع ... والآن هل تسمحين لي بمغادرة هذا المكان ... فقد حان موعد طائرتي المغادرة إلى «سويسرا» ... لألحق بالملايين هناك! تحركت «ناتاليا» لتغادر المكان وفوق شفيتها ابتسامة مأكرة ... وغمغمت تقول لنفسها في سخرية: يا لأخلاق هؤلاء الفتيات!

وما كادت تفتح باب المنزل حتى وجدت عددًا من الأشخاص في انتظارها في معطف ثقيلة أخفت أسلحتهم ووجوههم تنطق بغضبٍ عميق حادّ.

تراجعت «ناتاليا» عندما تعرفت على الوجوه المحيطة بها ... وغمغمت في ذهول عميق: المخابرات «الروسية»، من الذي دلهم على مكاني؟

وأجابها صوت «إلهام» من الخلف: لقد تركنا أمر عقابك إلى بني قومك ... وأظن أنه لن تأخذهم بك رحمةً على الإطلاق ... وكانت مكالمة صغيرة فيها الكفاية؛ ليلحق بك البعض منهم إلى هنا، بعد أن سعوا خلفك إلى «باريس» أيضاً.

جن جنون «ناتاليا» وصرخت: لا ... هذا مستحيل ... ودفعت أقرب الأشخاص إليها فأزاحته عن طريقها، واندفعت تعدو بكل قوتها داخل الزقاق الضيق، ومن وراء صاح أحد زملائها السابقين: توقفي مكانك يا «ناتاليا».

ولكنها لم تمتثل للأمر ... فانطلقت رصاصة مكتومة من مسدس أحدهم ... وترنحت «ناتاليا» ثم تهاوت على الأرض وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

والتفت الرفيق الذي أطلق الرصاص لزملائه قائلاً: لقد انتهى وأغلق ملف «ناتاليا» إلى الأبد.

وتحركوا جميعاً مثل الأشباح ليستقلوا سيارةً كانت تنتظرهم على مقربة ... وتأملت «إلهام» الجاسوسة المسجاة أمامها دون حراك، والتفتت إلى زميلاتها دون أن تفصح ملامحها عن أي مشاعر وقالت لهن: هيا بنا ... فلم يعد هناك ما نفعله في هذا المكان.

وقالت «زبيدة» محتجة: ولكن هؤلاء الجواسيس الأوغاد بالداخل، كانوا يسعون لهلاكنا وشراء أسرار بلادنا، ومن المستحيل أن نتركهم دون عقاب!

أجابتها «إلهام» وابتسامة رائعة تتلاعب فوق شفيتها: يا عزيزتي ... إن الجميع يعرفون أننا لا نقتل الأشخاص العزل من السلاح، حتى ولو كانوا أعداءنا ... ولكن وسائل العقاب متعددة ... فإن نصف هؤلاء الأوغاد بالداخل متهمون بتهم خطيرة ألقها القتل ... والنصف الآخر تطارده الشرطة والمخابرات الفرنسية بتهم السطو وخرق القانون والتجسس، هذا بالإضافة إلى أن وكر الدبابير هذا لا شك ممتلئ بالوثائق التي تدينهم جميعاً وتفضح شبكتهم للجاسوسية ... وتضمن لكل منهم تهماً تنتهي بالسجن مدى الحياة على أقل تقدير ... ومكاملة صغيرة للشرطة «الفرنسية» كفيلة بإنهاء أمر هؤلاء الجواسيس تماماً ... والآن هيا بنا فلم يعد هنا ما نفعله في هذا المكان.

وتحركت «إلهام» وخلفها زميلاتها ليغادرن الحي بأكمله ... ولم يفتهن أن يلقين النظر على مشهد «باريس» الساحر في النظر، ومن أعلى الحي اللاتيني.

كانت «باريس» تبدو كما لو كانت قد استعادت الكثير من إشراقها وبهاؤها ... بعد أن تخلصت من أسوأ نوع من المجرمين، بطريقة لم تخطر على بال أحد ... طريقة الشياطين.

